الأستاذ رشيد سكافي

خواطر من الماضي الجميل

إن إهتمامات آبائنا وأجدادنا بشؤونهم القروية لم يبدأ منذ إنتخاب مجالسهم البلدية التي تنظم شؤون بلداتهم ولا منذ إنتخاب أول مجلس بلدي بتاريخ ٨-٦-١٩٦٣ كما حصل لأول مرة في بلدتي كفرصير ولا بتاريخ ٨-٦-١٩٩٨ حيث ولادة المجلس البلدي الثاني بل هو عمل متواصل كما أذكر ويذكرنا الآباء والأجداد يعود لعشرات السنين حيث لم يكن القانون أو التشريعات المتداخلة مرجعا لنخبة كريمة من أبناء البلدة تعود إليها لتستلهم منها مرجعا لتنظيم أمورها بل كانت البساطة والإلفة والتفاهم هي النظام المتبع في القرية الوادعة ، لم يكن هنالك مصادر لتمويل العديد من المشاريع فلم يكن للإغتراب ولا لمخصصات الدولة ولا لحسنات الحاكمين دور في تعزيز طموحات المؤسسين الأوائل لتاريخ البلدة وأذكر منذ ٧٠ عاما تقريبا أول مشاهدتي لمصدر المياه الأول في البلدة (للنبعة الأم) حيث بضعة درجات من الأحجار المرصوفة التي تؤدي نزولا الى مصدر المياه ، قام بإحضارها بعض الرجال الأشداء من مقالع الصخور الصلبة المحيطة بالبلدة محملة على ظهور الجمال ، والطين جُبل بدلا من الترابة من منطقة تربتها لزجة فإذا أنت أمام مشروع متكامل كلف إنجازه همة من رجال وإشراف من أصحاب رأي ومشورة وخلافا لما يتطلبه اليوم من إصدار قرار وإستدراج لعروض وإعداد لإتفاقية يقتضي دراستها مليا من كامل أعضاء المجلس البلدي ، وكم سيكلف إنجاز هكذا مشروع اليوم إذا ما أخذنا بعين الإعتبار هدر الأموال والسمسرات ،ولم يكن مشروع النبعة الأم هو الأول : وفي كل ناحية من خراج القرية كنت تجد مصادرا للمياه من ينابيع متعددة ترشح ببركة الله ماءً طهوراً ، ينابيع متفرقة تروي غليل الفلاحين وتسقي مواشيهم وكافة العاملين في الأرض الملتحمين في تربتها أوفياء لها

يبادلونها وفاء بوفاء وعطاء بعطاء فتمتد بركة الأرض وغلالها إلى كل شريان في أجسادهم الطاهرة نجيعا صافيا ليس فيه مكان من إنسداد شريان أو جلطة دماغ.

ويحدثنا تاريخ البلدة عن رجال مضوا وبقيت آثارهم تنبئ عن عظيم عطائهم في بناء المساجد والنوادي الحسينية والمدارس المتواضعة وشرف عظيم لبلدتي كفرصير أن يتحدث التاريخ عن أول مدرسة للغة العربية فيها أسست منذ ١٣٠ عاما تقريبا وما لذلك من أثر ثقافي وكفاءة علمية كان لها الفضل في بروز عدد من الشعراء والأدباء والمفكرين الذين زهت بأقلامهم منابر المناسبات وساهموا في إعلاء شأن البلدة ، وفي بداية الخمسينيات من القرن الماضي فقد دعت الحاجة إلى تعميق الوحدة وتنظيم العمل الإجتماعي بعد فترة شهد خلالها الجنوب إنقساما حادا بفعل الإنتماءات الساسية المتعددة لزعامات وتيارات نشأت بعد تلاشي الحكم التركي وجلاء المستعمر الفرنسي وكادت تلك الرياح أن تؤثر على مجتمع البلدة فتداعت العائلات لتنظيم شأنها الداخلي في لقاءات وتجمعات عائلية وتجمع عائلات وكان للرابطة الخيرية لشباب كفرصير كمؤسسة إجتماعية الدور الأبرز في التصدي لشؤون البلدة وشجونها ، حيث تأسست بموجب علم وخبر رقم ٢٣٦٦ بتاريخ ٧-٧-١٩٥٣ قرار صادر عن وزير الداخلية آنذاك المرحوم صائب سلام ، وإذا بهذه المؤسسة الجديدة تتداعى للقيام بعمل هام فتخرج من دائرة القرية ومحدودية إهتمامها لتنطلق شاقة طرقا وسبلا رابطة كفرصير بالقرى المحيطة ولتصل البلدة بالطريق الرئيسي الذي يؤدي الى العاصمة بيروت ، وإذا بالبيان رقم واحد يصدر عن إجتماع لأبناء البلدة يدعو الفلاحين الى التوقف غدا عن أعمالهم والتجمع باكرا في ساحة البلدة حاملين المعاول والرفوش والمخول والمهدات ، كان ذلك في أيلول من العام ١٩٥٢ وتساءل البعض ماذا يجري وسمعنا ونحن أطفالاً أطراف حديث لرجال كانوا يجلسون على مصطبة البلدة عن شق طريق بإتجاه قرية قاقعية الجسر ...

وأي جاهل يقترح هذه الفكرة....

هذا مشروع دولة ...هكذا قال أحدهم ، وفي صباح اليوم الموعود لبى الجميع الدعوة حاملين أدواتهم المتواضعة. ودفع الحدث الجديد بالأولاد لأن يتجمهروا أيضا وكنت واحدا منهم ، وإذا

بثلاثة رجال كما أذكر يعتلون تلة مرتفعة ويبلغون الحاضرين بالبدء بمشروع شق الطريق معتمدين على الله وعلى إرادة أبناء البلدة .....واحد من الثلاثة يطلب من الأولاد العودة إلى بيوتهم.. فيهمس آخر في أذنه : فيستدرك المتحدث : مهلا أيها الأولاد أنتم عماد مستقبلنا هيا أمامنا نظفوا الشوك والقندول والبلان وأحرقوها وهاكم بعضا من علب الكبريت ، كانت فرحة لا توصف أن نشترك مع رجال البلدة في مشروع فتح أول طريق بإتجاه العاصمة وأول ثغرة في فك دائرة الحصار حول الذات نحو الأفق الجديد إلى بيروت حيث هنالك من هاجر إليها في عشرينيات القرن الماضي هربا من الفاقة وبحثا عن الرزق الحلال وبعد أقل من شهر إذا بأول سيارة تصل البلدة من نوع فورد كما أذكر قيل أنها من موديل ١٩٣٧ وبدأ مجتمع البلدة يتنفس بعبق المدينة وحضارتها وإذا ببعض أبناء البلدة يقتني سيارات صغيرة للتواصل مع العاصمة.

هذه المقدمة المتواضعة أردت من خلالها أن أتوج بها كلمتي عن العمل البلدي ماضيا والذي كان قائما دون تشريع أو قرارات..

إنه تاريخ البلدة الزاهر بالعطاء ويعذرني القارئ إن تعمدت عدم الربط بين هذه المشاريع وأسماء الأجداد والآباء الذين كانت لهم إطلالة دائمة وثابتة في كل مشاريعها ، وبالرغم من المقولة الثابتة لدى المتابعين لسير العمل الإجتماعي في البلدة من الشخصيات المستقلة والنافذة من أن أية تركيبة لمؤسسة أو جمعية لا تتمثل فيها كل القوى غير قادرة على العطاء بنسبة عالية وهذا ما إختبرناه في الهيئات الإدارية المتعاقبة على إدارة الرابطة الخيرية لشباب كفرصير لكن نتائج الإنتخابات في الرابطة كانت وليدة الديمقراطية والنزاهة وقد شهد بها كبار المسؤولين في الدوائر الرسمية المدنية والعسكرية وبرز دور الرابطة أكثر عندما تحدت الإحتلال الإسرائيلي ببناء مركزها المؤلف من ٣ طبقات والذي يحوي المركز الطبي ومركز الخدمات الإنمائية ودار الحضانة والمستوصف الرسمي والمكتبة الثقافية وقاعة الإجتماعات وأكثر ما أثار دهشة المحتل الإسرائيلي وهو يراقبنا ونحن نحضِّر لإحتفال كبير في العشرين من شهر آذار من العام ١٩٨٤ لدار الحضانة ،كان هو الأول الذي شهده الجنوب بشهادة الصحف اللبنانية والتي صدر معظمها في اليوم التالي معنونة الصفحة

الأولى بأخبار نجاح الإحتفال الأول في الجنوب وبتحدي العدو الإسرائيلي وأذكر عنوان إحدى الصحف التي نشرت تقريرا عن الإحتفال بعنوان بالخط العريض : *رغم إتشاح الجنوب بالسواد كفرصير تلون واقع الطفولة* ،وهنا لا بد من التأكيد على إيجابية التنوع داخل البلدة وما لذلك من دور كبير في إغناء المجتمع وصقل المواهب والتي تحصل نتيجة إبتكار الأساليب لإكتساب ود وثقة أبناء البلدة وإذا كان لبلدتي كفرصير من ميزة فريدة فهي في هذا التنوع والتناقض والذي يبقى محكوما بسقف المصلحة العامة للبلدة ، فبلدتي كفرصير ليست هي المشاريع والمؤسسات الإجتماعية والمساجد والنوادي الحسينية ،ليست النهر وما يحيط به من مشاريع سياحية ومنتزهات خلابة ،إنها دمعة الفرح ودمعة الحزن التي توحد بين أبناء البلدة ، إنهم المقاومون والشهداء الذين قاوموا كل غاز ومحتل منذ الإحتلال التركي ولتاريخه والذين رفعوا اسم البلدة والوطن عاليا.

وبعد: هل أتاك حديث البيت العاملي (البيت العربي) والذي يتمثل غالبا عندنا بكل صفاته في بيت شيخ القرية وقد لا يكون هذا الشيخ مختارا ولا رئيس بلدية وإنما له صفة المشيخة لأن مقومات الوجاهة والزعامة مجتمعة فيه ، إنه رجل رزين وقور كريم مضياف عصامي متواضع أدركته وأنا في الصغر وقد كان في الستين أو أكثر لكنه كان محتفظا بقوة الشباب البدنية ، كان أنيقا في لبسه العربي الغمباز الحريري الطويل أما بيته فقد كان عتيقا في شكله ترى فيه صينية القش المستديرة وترى فيه الطاولة الخشبية وحصيرة البواري مع كراسي الخيزران الجميلة فباب بيت شيخ البلدة كالبوابة بفرعة واحدة وكانت سهرة معظم رجال القرية تتم في منزله بمثابة الجريدة في المدن والحواضر فيها الأنباء المحلية وفيها شؤون البيت والحقل وأمور الرياسة والسياسة ولك أن تقول إن السهرة في بيت الشيخ هي الدنيا مصغرة بل هي الكون كله وفيها تدور مختلف الأحاديث ، فما أن يمسي المساء على الفلاح وغير الفلاح حتى يصلي ويتعشى ويضيء قنديله الكاز ويتوجه الى بيت الشيخ وكان الشيخ يسهر على راحة الساهرين ويكرم مثواهم بكل ما أوتي من سعة وذوق ..ففي الشتاء يضرم النار في الموقد الكبير المستدير والمصنوع من التراب اللزج مجبولا بالتبن الناعم والنار هي فاكهة

الشتاء ويصف المساند والطراريح ويقوم بين الفينة والأخرى بملاحظة النار فينكشها بالملقط ويطعمها بسخاء فلا يفارقها حتى تتلظى اشتعالا ويسمع لها سعير وزفير..

وفي زوايا الذاكرة لتلك الأيام القديمة كانت تدور في بعض السهرات مباريات شعرية وأذكر أن جوائز قد خصصت للفائز الأول حيث ربح أحدهم جائزة قيمة عبارة عن ٣ أمداد عدس ومدين حمص وديكين ونعارة عسل ..ما أرخص هذه الجائزة ماديا وما أغلاها معنويا عند من يعرفون أوضاع جبل عامل الإجتماعية زمنئذٍ....

كانت هذه المقطوعة عصارة لعصر كان يمضيه القدماء من آبائنا وأجدادنا في زراعة الأرض وفي الحديث والسهر والسمر والتندر قد ولى ...وإن الجيل الجديد قد إنصرف أسوأ إنصراف عن كل ما يغذي الروح ويشغل الأريحيات الفنية والأدبية إلا ما ندر وإن أنبل ظاهرة في هذا العصر هي في الرموز والشخصيات الأدبية والعلمية التي تتشكل منها هيئة تكريم العطاء المميز والتي هي محل إعتزازي وتقديري.